

زفرة مصدور !

للأستاذ علي الطنطاوي

—*—

إلى أخي شكري فيصل :

قرأت كلنك التي أوحى إليك الحنين منهاها ، فوعيت وحيه
وبلغته « الرسالة » وأهديته إلى صاحبها فأثارت قراءتها ألماً
في نفسي دفيناً ، وبعتت فيها شكاة مبيتة ، فأخذت القلم أكتبها
لتكون جواباً لكلماتك . وليغفر لي القراء النحر الذي نحوت إليه
فيها ، وليغفر الزيات فإني متألم ...
ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة

براسيك أو يسليك أو يتوجع
وما عجب أن أدخل بينك وبين الأستاذ الكبير الزيات ، فإنه
أخي الأكبر ، وأنت أخي الأصغر ، وأنا أحمل له من الحب
والإكبار ، على أني لم ألقه أبداً ، مثلما أحمل لك من المودة والحب
على طول معرفتي بك ناشتاً وشاباً ، وعلى أني سأعرفك أديباً
كبيراً إن شاء الله

أنا الآن في شرفتي التي تعرفها ... أطلت على دمشق من فوق
خمس جوادٍ علوها مائتا متر ، فأراها كلها كصفحة الكسف ،
وقد انتصف الليل ، وانصرف السامرون آنفاً بعد ما أحيوا ليلة
من الليالي التي تعرف مثيلاتها في دارنا ، وسكن الكون وشمله
الجلال ، وأنا جالس وحدي أفكر ، لا أفكر في دمشق التي حذت
إليها ، وشاقتك ذكراها ، دمشق التي باكرها الربيع فضحك
في غوطتها الزهر ، وغمر جوتها المطر ، وماست في جناها الحور
للغاتات ، من الحور وللصفصاف ومن بنات أمنا حواء ، لا أفكر
فيها لأن قلبي لا يفتح الآن لإدراك الجمال ، وقريحتي لا تنشط
لوصف الربيع ، ومكان الشمر من نفسي مقفر خال . وما لي
لا تخمل قريحتي ، ويذوي غصن الشمر في نفسي ، وقد عدت
إلى دمشق ، على طول شوقي إليها وازدياد حنيني ، وتركت
أهلاً في المراق كراماً ، وبلداً طيباً ، وأمة حية ، تحمل اللواء ،
وتهز الدلم ، وتقدم لتجمع الشمل للشثيت شمل للعرب المتفرق ،
وتوحد الشعب وترجع المجد والجلال ، وتؤلف بين أهل اللباد
من حاضر وبإد ... تركت ذلك كله وعدت إلى بلدي الأول ، وبليت

بفداد كانت هي بلدي الأول ... فلم أجد في دمشق إلا النكران
والأذى ولم أجد إلا ما يسوء ويؤلم ...

ولكن هل يشكو امرؤ بلده ؟ هل يهدم بيده داره ؟
إن تكلمت قال الحساد بنى وظلم ، وإن سكت قال الشامتون
رضى أو عجز ، والقلب بالسكوت يتغطر ، والصدر من الصمت
يتمزق ، والكلام ... هل يجوز لي الكلام ؟
يا ليتني بقيت بعيداً أفنع من بلدي بهذه الصورة الحلوة التي
تراءى من خلال أحلام المشوق الوطان ، وبوحى بها الحنين
العاثي ، يا ليتني ، وهل تنفع شيئاً ليتني ؟

فأفنع أنت بهذه الصورة ودع دمشق . ولكن لا ، إنك لمت
مثلي ، إنك ستمود فتاتي مكانك في غرفة المدرسين ممداً لك
ينتظرك . وسيظلمونك فيسوتون بينك وبين هؤلاء الساكنين
الذين بثومهم ليعلموا العربية في ديار المعجم فجعلهم بذلك سخريه
الساخرين . أما أنا فلم أبلغ مرتبة هؤلاء ، ولا أنا يبالفها في يوم من
الأيام ، وقد عمى أولو الأمر والنهي عن أدبي وعلمي وعمما نشرت
في الكتب والمجلات والصحف وهو شيء يملأ ثلاثة آلاف صفحة
على أقل تقدير . هب أن فيها كلاماً مرصوفاً لا معنى وراءه
تجد أني حملت في كتابتها ورصفها عناء ، فكيف وكلها ثمرة
التأمل الطويل ، ونديجة كد الخاطر وحصر الدماغ ، وما منها
شيء سرقة عن أديب من أدباء فرنسا ولا انكثرا ... عمي
أولو الأمر عن هذا كله ولم يمدلوه بهذه الورقة السحرية التي
جاء بها أولئك من ديار المعجم يشهد لهم فيها من يسكن هناك ،
بأنهم صاروا يفهون العربية ، وغدوا أهلاً للتصدر لتدريسها ...
ولم يجدونى أهلاً لأكثر من « أستاذ معاون » !

أفيكون ظناً مني وعدواناً ، إذا أعلنت ما أصابني ، وشكوتني
إلى القراء ، وهم أصدقائي ، لم يبق لي من صديق غيرم ؟ لم يبق
لي صديق في هذه الحياة ، إنك لتعلم ذلك ، ولكني لا أشكو
إنهم يقولون إنني عنيد ، وإني مشاغب ، وإني أمير المشاكل ؛
ولست أفهم لهذا كله إلا معنى واحداً ، هو أني أوثر للصدق وأعلمه
ولا أفعل ولا أقول إلا ما أطمئن إلى أنه الحق ...

وهل كان ذنباً أني حيت للفضيلة تمهن ، وللأخلاق تهان ،
فناصلت عنها وقاوتت ، وقلت لتلاميذي ناضلوا عنها وقاوتلوا ؟ ...
وهل كان ذنباً أني غضبت لمحمد أن ينكر نبوته ويحجد
رسالته ، جاهل غرير ، في حفلة أقيمت لتكريم عمه وتمجيد

ذكراه ؟ وهل كان ذنباً أنى لا أقول لسواد الليل أنت أبيض مشرق ، ولا أقول للأعور ما أحلى عينيك ؟ ...
هذه هي ذنوبى التي خسرت من أجلها صداقات الأصدقاء وكسبت عداوات الرؤساء ، وريحت خصومة الجاهلين ، وُعددت بها من كبار المشاعيين ...

لقد قارب الفجر ، وانطفأت أنوار المدينة ... لقد مررت على ساعتان وأنا أفكر ، وكل شيء من حولي ساكن ميت ، وكذلك حياتى ... إنها خالية منذ سنوات ، ليس فيها شيء متحرك ... فأنا أعيش عيش الخاملين ، أرقب أبدأ الحادث الذى يهز حياتى للساكنة ، ويحرك مواهبى الخاملة ، ويدفعنى إلى العمل ، ولكن انتظاري قد طال حتى كدت أباأس من الانتظار ...

إنك تمزيتى بما حصلت من شهرة وما نلت من مكاة ، ولعل فى ذلك تسلية لى لو كنت أحس به أو ألمه ، إننى لا أحس والله بهذه الشهرة ، إننى كالغنى الأعمى ، يطرب للناس فيصفقون له ويهتفون ، ولكنه لا يسمع ولا يرى ، فينصرف حزينا يحسب أنه خاب وأساء ...

إن أهل بلدى ينكرون على كل شيء حتى الأدب لقد قرأت أسس مقالة سقطت إلى عرشاً ، قرأت فيها مقالاً يخبط فيه صاحبه خبط صميا ، فيمد أدياء دمشق أو الذين يرأم هو أدياء ، فيذكر فيهم كل موظف فى وزارة المعارف ، وكل تلميذ يدرس فى أوربة ، وكل مدرس التاريخ والجغرافيا ، ولكنه لا يذكر على الطنطاوى ولا سيد الأفتانى ؛ أقسمت أبلغ من هذا الجهل وهذا النكران ؟

هذه حالتنا فى دمشق التى تحن إليها ، ونحبي الليالى تفكر فيها ، وتترامى لك صورتها حيال الأفق وأنت قائم عند قنطرة الزمالك أو صرقت ذروة الهرم ، وتساير للنجم تفكر فيها وتمتد الأيام للوصول إليها ، دمشق صارت كالمهرة نأكل من حبها بنيتها لقد حمل إلى البريد رسائل جمة ممن أعرف ومن لا أعرف يسألنى أصحابها لم لا أكتب فى الرسالة فى هذه الأيام ؟ فوجدت فى هذه الرسائل عزاء ، وشكرت لأصحابها ، وتوهمت حين قرأتها أن فى الدنيا من يفكر فى ، ويقرأ ما أكتب ، ولكنى لم أجد واحداً منهم ، وبماذا أجيهم ؟ وكيف أقول لهم إن دمشق قد قتلت فى نفسى روح الأدب ؟

كيف أشكو دمشق التى أحبها ؟ وكيف أذتمها بعملها ؟

ثلاثون سنة ما خرجت منها إلا بشيء واحد ، هو أنى رأيت الحياة كائنة القهار ، فن الناس من يخسر ماله ويخرج ينفذ كفه ، ومنهم من يخرج مثقلاً بأموال غيره التى ربحها ، ومنهم من يقوم على الطريق يمسح الأذى ، ومن يمد إليه حذاءه ليمسحه له ، ومن ينام على السرير ، ومن يسهر فى الشارع يجرس التأم ، ومن يأخذ التهمة من غير عمل ، ومن يكذب ويدأب فلا يبالغ الواحد ، وعالم يخضع لجاهل ، وجاهل يتأس للملاء ، ورأيت المال والدم والخلق والشهادات قدماً وهبات ، فرب غنى لا علم عنده ، وعالم لا مال لديه ، وصاحب شهادات ليس بصاحب علم ، وذى علم ليس بذى شهادات ، ورب أخلاق لا يملك معها شيئاً ، ومالك لكل شيء ولكن لا أخلاق له ، ورأيت فى مدرسى المدارس من هو أعلم من رئيس الجامعة ، وبين موظفى الوزارة من هو أفضل من الوزير ، ولكنه الحظ الأعمى ، أو هى حكمة الله لا يعلم سرها إلا هو ، ابتلانا بخفاياها لننظر أترضى أم نسطخ ولكن ما أضيع أياى فى مدرسة الحياة ، إن كان هذا كل ما تعلمت منها فى ثلاثين سنة ا

لقد أذن الفجر وأنا ساهر ، وأضيت منارات دمشق التى لا يحسبها عد ، ورن صوت المؤذنين فى أرجاء الوجود سابقاً عذبا : الله أكبر ... الله أكبر ...
الله أكبر من كل شيء ، اللهم إنى أرفع إليك شكائى ...
اللهم إنى قد نفضت يدي من الناس ، وإنى أسألك أمراً واحداً ، ألا تقطعنى عنك ، وأن تدلنى عليك ، حتى أجد راحة بك أنس الدنيا ، وسعادة الأخرى ...
هو الطنطاوى

اخنا تون ونفرتيتى
مسرحية شعرية ودرامة إلهية
للأستاذ على أحمد باكثير

نالت جائزة المباراة للفرقة القومية
تطلب من الناشر مكتبة الخانجي والكتاب الشهيرة